

ر.ج. كولنجود و فلسفة التاريخ

في انجلترا

في القرن العشرين

أ. خديجة زتبلي

معهد الفلسفة - جامعة الجزائر-

المخلص

تأريخ	فلسفة
يتناول هذا البحث المسألة التاريخية و طريقة معالجتها الفلسفية في انجلترا في القرن العشرين، وهذا من خلال ر.ج. كولنجود الذي يريد البحث ان يثبت مدى أصالته في فلسفة التاريخ. و لكي يتم ذلك اضطر البحث منهجيا إلى استعراض الخلفية الفكرية للفلسفة الانجليزية دون أن ينسى مكانة التاريخ فيها.	1938 1940 1942 1945 1946
Autobiography	1938
Essay on Metaphysics	1940
The New Leviathan	1942
The Idea of History	1945
The Idea of Nature	1946

هناك من الكتاب و الفلاسفة من تتجاهل ذكرهم المعاجم، و تنسى أو تتناسى الموسوعات الفلسفية تعرض لحياتهم الفكرية و لإنتاجهم الفلسفي و لا يهتم بهم النقد، و لكن هذا ليس معناه أنهم غير مبدعين.

هذا القول ينسحب على الفيلسوف الإنجليزي روبن جورج كولنجوود (ROBIN GEORGE COLLINGWOOD)، فعلى الرغم مما تتميز به أعماله الفلسفية من العمق و الأصالة و التنوع إلا أن النسيان طواه لفترة طويلة من الزمن، و لم يكن ليهتم بفكره إبان حياته، و لكن بعد وفاته أفلح بعض الباحثين في إخراج هذا الفكر من عزلته و انتهت إلى أهميته بعض جامعات العالم و أصبح موضوعا للعديد من الأبحاث و الرسائل الجامعية (1).

و عزلة كولنجوود لها أسبابها التاريخية و المعرفية التي تبررها، خاصة إذا علمنا أنه فيلسوف من القرن العشرين، و لا يخفى على أحد التحولات العميقة التي كانت الفلسفة تعرفها في مطلع هذا القرن. و قبل الخوض في أسباب هذه العزلة، و التي نؤجل الحديث عنها إلى سياق لاحق، نتعرض الى التطور الفكري لهذا الفيلسوف . و سنحاول أن نقرنه بمؤلفاته و تواريخ نشرها و لعلها أسلم طريقة للتعرف على الرجل بدل الدخول في تفاصيل شخصية لا تخدم الدراسة، و سيبين العرض الآتي للمؤلفات مدى التطور و التنوع الفكريين لكولنجوود.

السنة	المؤلفات
(1916)	<u>Religion and Philosophy</u> الدين و الفلسفة
(1924)	<u>Speculum Mentis</u> مرآة العقل
(1933)	مقال في المنهج الفلسفي
	<u>Essay on Philosophical Method</u>
(1937)	<u>Principles of Art</u> مبادئ الفن.
(1939)	<u>Autobiography</u> سيرة ذاتية
(1940)	<u>Essay on Metaphysics</u> مقال في الميتافيزيقا
(1942)	<u>The New Leviathan</u> التنين الجديد
(1945) (نشر بعد وفاته)	<u>the Idea of History</u> فكرة التاريخ
(1946) (نشر بعد وفاته)	<u>The Idea of Nature</u> فكرة الطبيعة

و إضافة إلى هذه المؤلفات، هناك مجموعة هائلة من المقالات كتبها كولنجوود في التاريخ و الآثار و الدين، نشر بعضها مستقلا أما البعض الآخر فقد جمع في كتبه لاحقا و ذلك حسب مجال و غرض المقال. و هذا ما نلاحظه مثلا على العناوين الأتي ذكرها.

العنوان	السنة
<u>فلسفة التاريخ</u> <u>The philosophy of history</u>	(1930)
<u>الخيال التاريخي</u> <u>The Historical Imagination.</u>	(1935)
<u>طبيعة الإنسان وتاريخ الإنسان</u> <u>Human Nature and Human History .</u>	(1936)

هذه العناوين الثلاثة التي نشرت كدراسات و بحوث أو على شكل مقالات هي نفسها التي ستدمج فيما بعد في كتاب فكرة التاريخ .
و يوضح لنا هذا العرض للمؤلفات، التدرج الزمني و الفكري لكتابات كولنجوود، و كذا خصوصيتها في مدة زمنية تصل إلى ربع قرن إعتبارا من بداية النشر لإنتاجه سنة (1916) و توقفه سنة (1942)، أي سنة قبل وفاته التي تصادف سنة (1943).

- المراحل الفكرية و المنعطقات الهامة لإنتاجه:

يرى بعض المتخصصين في فكر كولنجوود، و منهم آلان دوناغان (ALAN DONAGAN) (2) أن هذا الفيلسوف قد مر بثلاث مراحل أساسية أثناء تطوره الفكري.

1- الإنتماء المثالي الواضح و الصريح و يمتد بين الفترة (1912 - 1927)، و هذه الفترة عرفت ما يسمى بمؤلفات الشباب.

- 2- مرحلة النضج و خلالها يبقى وفيا للمبادئ المثالية (1927 - 1937)، و قد شهدت هذه المرحلة التاريخية أيضا مؤلفات تتميز بالتجديد و الإضافة إلى الأطروحات السابقة.
- 3- المرحلة الأخيرة و تمتد بين الفترة (1937 - 1943)، وهي مرحلة الشيخوخة التي تميزت بالإنتاج الفكري الجيد، ولكن بالإضطراب أيضا بسبب سوء أحواله الصحية.

- الخلفية التاريخية للفلسفة المثالية الإنجليزية قبل القرن (20):

قد يتساءل المرء لماذا العودة إلى الخلفية التاريخية للفلسفة الإنجليزية في شقها المثالي، لماذا العودة إلى ما قبل القرن 20 ؟ نعود إلى ذلك لأننا نعتقد أن كل بناء فلسفي له خلفيات تاريخية و فكرية، و أن الإشكاليات المعرفية هي الأخرى لها تاريخ، و لم تكن أبدا لتطرح تلقائيا أو بمحانية. إن الإشكال الفكري تطرحه ظروف، أزمة ... و قد يعبر عنه بطرق مختلفة و ضمن فلسفات متباينة في المنطلقات و المنهج، و لكن الإشكال يظل مستمرا و لا يموت بزوال فلسفة ما، أو أفول مذهب، بل إن الرؤية تتجدد إليه دوما.

إن فكرة الذات العارفة كما طرحها ديكارت في القرن السابع عشر، ستختلف عن طرح كانط لها فيما بعد، و مفهوم الميتافيزيقا في الفلسفة القديمة يختلف عنه في الفلسفة الحديثة و المعاصرة ... و لكنه على الرغم من هذا التباين في المعالجة لدى الفلاسفة بحكم اختلاف مشاربهم الفلسفية و إنتماهم الجغرافي تظل الإشكاليات السابقتان قائمتين (إشكالية الذات- إشكالية الميتافيزيقا).

و لعله من أجل هذا يجد الفكر المعاصر نفسه و هو يطرح كبديل معرفي، غير قادر على تجاهل بعض المسائل التي طرحها الفكر البشري في مرحلة من مراحل نشاطه، ذلك لأن العصور تتحاور مع بعضها طالما أن بعض المفاهيم تحتاج إلى قرون كي تنضج و تفهم في السياق الذي أريد لها. و لأن الإشكاليات لا تقطع أبدا من الأرضيات التي نمت بها، بل يصبح تتبع مسارها أمرا ضروريا و ملحا للدراسة العلمية التي ترفض الإرتجال على حساب البحث العلمي النزيه.

لذا نجد أنفسنا مدفوعين بهذا الدافع للرجوع قليلا إلى الوراء مع الفلسفة الإنجليزية في بعض منعطفاتها، ونذكر إلى أن ذلك سيكون حسب ما يتفق و غرض الدراسة، لأن القراءة تحدها غايات منهجية وعرفية.

سنبحث بناء على ما سبق، الحركة أو الاتجاه المثالي في الفلسفة الإنجليزية قبل كولنجوود لإعتقادنا بأن فيلسوفنا هو إمتداد لهذا التيار المثالي، أو واحد من الممثلين لهذا التيار في إنجلترا في القرن العشرين و في مراحل هامة من كتاباته كما تدل على ذلك نصوصه. وهنا نطرح السؤال : ماهو مفهوم الحركة المثالية أو المثالية الجديدة كما إصطلح على تسميتها ؟

– المثالية الجديدة:

في البداية ما معنى المثالية ؟

أ – المثالية

هي مذهب في نظرية المعرفة و يقابلها الواقعية، والحقيقة أن المثالية في تاريخ الفلسفة تتفرع إلى مثاليات، فهناك المثالية اللامادية عند باركلي، و المثالية المتعالية عند كانط و المثالية المطلقة عند هيغل و المثالية الموضوعية عند أفلاطون... و المثالية " (IDEALISM) هي أي نسق تكون مبادئه التفسيرية الأساسية مثالية، و المعنى الواسع للكلمة هي كل رؤية نظرية أو عملية تؤكد على العقل (النفس، الروح، الحياة) أو ما يميزها بصفة خاصة من حيث أولية القيمة بالنسبة إليها ". (3) هذا عن المثالية من الناحية الإصطلاحية. فماذا عن المثالية الجديدة أو المثالية الهيكلية الجديدة ؟

ب- المثالية الجديدة

يمثل هيغل قمة المثاليين الألمان، بل أبرزهم على الرغم من وجود لفيف آخر من المثاليين (4) و على حد تعبير هنري ايكن : " تعتبر فلسفة هيغل بشكل عام نقطة الأوج في تطور المثالية الألمانية في الفترة ما بعد الكانطية في ألمانيا، إنها و لا ريب أعظم نظم الفكر تأثيرا في القرن التاسع عشر ". (5)

و هيجل هو الفيلسوف الألماني الذي كان له الأثر الكبير في الفلسفة المثالية الإنجليزية أو ما أصبح يتخذ عدة تسميات أخرى : مثل المثالية الهيجلية الإنجليزية أو المثالية الجديدة أو الهيجلية الجديدة.

و الهيجلية الجديدة " هو الاسم الذي أعطي لفلسفة هيجل التي أعيد إحيائها و التي بدأت في اسكتلندا و إنجلترا في منتصف القرن التاسع عشر و بعد مدة قصيرة إنتقلت إلى أمريكا ... (6) , و نفس الرأي يذهب إليه رودلف متس (RUDOLF METZ) الذي تناول هذه المسألة بإسهاب و عناية فائقة عندما تطرق إلى الحديث عن الفلسفة الإنجليزية، حيث يقول بهذا الشأن : " نعي بالحركة المثالية الجديدة تغلغل المثالية الفلسفية الألمانية في الفكر الإنجليزي. و لم يصح هذا التغلغل ملحوظا إلا في العقدين السابع و الثامن من القرن الماضي. أي بعد جيل كامل من وفاة هيجل " (7).

و اعتبارا من تاريخ بداية النشر لمؤلفات إنجليزية شارحة لهيجل، أو دارسه له أو ناسحه على منوال فلسفته، أو متجاوزة لها، نستطيع أن نحدد بداية هذا التغلغل بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر. و نشير هنا إلى " أن اليقضة الحقيقية للمثالية الإنجليزية لم تأت من جانب الأوساط الأكاديمية في اكسفورد، حيث لم تظهر مؤلفات تعبر عن هذا الجديد إلا بعد فترة طويلة من الإعداد و الكمون، و إنما ظهرت بفضل بادرة حريئة حاسمة لرجل إسكتلندي غير متخصص، كان حتى ذلك الحين مجهولا هو ج. هـ سترلينج الذي نشر في عام 1865 مؤلفا من مجلدين عن هيجل " (8). و نعي بذلك كتاب سترلينج (STIRLING) و المعنون : ب سر هيجل THE SECRET OF HEGEL، إنه الأول و الفريد الذي كان فاتحه عهد جديد، فقد استهل حركة فكرية جديدة هي المثالية الإنجليزية أو المثالية الجديدة. فقد مكث سترلينج زمنا طويلا في هيدلبرج بألمانيا. و سمح له هذا المكوث التشبع بمباني هيجل في مرحلة كانت الهيجلية تمارس تأثيرا في الأوساط الفلسفية في ألمانيا و تتعرض أطروحاتها للدراسة و النقاش و التبيين أو الرفض.

- فلسفة هيجل و صداها في الفلسفة الإنجليزية

لقد بهر سحر هيجل الفلاسفة الإنجليز الذين إطلعوا على الثراث الألماني الفلسفي لكانط و هيجل من خلال زيارة بعضهم لألمانيا، أو من خلال الترجمات، و بات

يلاحظ أن الفلسفة الألمانية بدأت تتغلغل في أواسط النخبة المثقفة من الإنجليز سواء أكانوا أدباء أم فلاسفة، و تطلع العديد من المثقفين إلى هذا النمط الجديد من التفكير، و إلى الطرائق الجديدة في المعرفة التي تنسب إلى الألمان، و يلاحظ الدارس للفكر الإنجليزي خلال هذه المرحلة الهامة من تاريخها أن هذه النهضة المعرفية قد خلصت الإنجليز من عقده التمسك بترائهم القومي فقط.

و نعتقد أن أهمية الكتابات الهيجلية و أطروحاتها الجديدة و الجديدة هي التي جعلت انتشار الهيجلية سريعا وفعلا لا فقد بدأت حركة الإطلاع على التراث الفلسفي القادم من ألمانيا بالترجمة أولا، ثم هضم هذا التراث و تم نقده و تقييمه في مراحل متأخرة.

ففي هذا الصدد ترجمت كتب هيجل الرئيسية في فلسفته منها : ظاهريات الروح، علم المنطق، فلسفة الحق، محاضرات في فلسفة التاريخ، فلسفة الفن، محاضرات في فلسفة الدين، ثم ألف فلاسفة الإنجليز، الذين صنفوا فيما بعد ضمن التيار المثالي، العديد من الكتب الناجمة عن تلاقي و تزاوج الفلسفة الإنجليزية بالفلسفة الألمانية، و فيما يلي نذكر بعض المؤلفين و عناوين كتبهم.

إسم المؤلف	حياته	عنوان الكتاب	سنة الصدور
جيمس هيشسون ستيرلنج J.H . Stirling.	1830-1908	سر هيجل The Secret of Hegel	(1865)
توماس هل جرين Thomas Hill Green	1822-1886	الأعمال الفلسفية لديفيد هيوم The philosophical works of david Hume. و ضمن هذه الأعمال نفسها كتب: مقدمات لمقالة في الطبيعة البشرية هيوم ، حيث انتقد التجريبية الانجليزية من منطلقات مثالية .	(1874)
إدوارد كيرد Edward caïrd	1835-1908	هيجل Hegel الفلسفة النقدية لكانط	(1883)

(1889)	The critical philosophy of Kant (2) vols (جزآن)		
(1880)	مدخل الى فلسفة الدين An Introduction to the philosophy of Religion. (1899) الأفكار الأساسية للمسيحية The Fundamental ideas of christianits. (نشر بعد وفاته).	(1898-1820)	جون كيرد John Caird نظر لتكوينه الدين فقد انصبت كتاباته حول الدين و الفلسفة من وجهة نظر مثالية هيكلية .
(1883)	المنطق بوصفه علما للمعرفة Logic as the science of knowledge المنطق أو مورفولوجيا المعرفة) جزآن (logic or the (1899) Morphology of Knowledge. و من بين ما اشتهر به هو (1892) كتابة في الفلسفة السياسية: ط 2 (1904) النظرية الفلسفية للدولة . The philosophical theory of the state و تاريخ الاستطيقا A History of Aesthetics	(1923-1842)	برنارد بوزانكيت Bernard Bosanquet
(1887)	المذهب الهيكلية و الشخصية Hegelianism and personality. (1882) الفلسفة من كانط الى هيكل The Development	(1931-1856)	أندرويث برنجل - باتيسون Andrew seth pringle pattison.

	from Kant to Hegel.		
(1876)	دراسات أخلاقية Ethical studies	(1846-1924)	فرانيس هربرت برادلي Francis Herbert Bradly Bradley.
(1893)	الظهور و الواقع Appearance and reality		
ط 2			
(1897)	و هو أشهر كتبه .		

يوضح هذا الجدول كيف أثرت الفلسفة الألمانية على الفلسفة الإنجليزية و ما نتج عن هذا التأثير في مجال الفلسفة، و هنا تعرضنا لأشهر الفلاسفة الإنجليز الذين تأثروا بالمثالية الألمانية فقط. و يبين هذا العرض العاجل، نشاط الفلاسفة الإنجليز و حماسهم للفلسفة الألمانية، و نلاحظ أن هذا الإهتمام موجه للإرث الكانطي و الهيغلي، و لكن الهيغلي على وجه الخصوص، و ذلك كما يبدو من المواضيع التي طرقت في هذا المجال. تحدثنا عن انتقال الفلسفة الألمانية إلى التفكير الإنجليزي، و لكن بقي علينا أن نتساءل كيف حدث ذلك؟ و كيف تم هذا الانتقال؟

أ- موقف رودلف ميتس

يذهب رودلف ميتس إلى أن الشعر و الأدب قد لعبا دورا هاما في ظهور المد المثالي الذي كان مضادا لفكر عصر التنوير بحيث "تظهر أولى بوادر المضمون الروحي الجديد .. في اشعار شيلي و كيتس و وودسورث و كولردج.

غير أن صمويل سيلر كولردج (1772 - 1834) هو الذي كانت له أهمية خاصة من بين هؤلاء جميعا، فهو لم يكن شاعرا ملهما فحسب، بل كانت له أيضا مواهب فلسفية أصيلة، فتعرض مرة تلو المرة لتأثير هارثلي و باركلي و اسبينوزا و أفلاطون و أفلوطين و كانت وشلنج و غيرهم " (9).

إن انبعاث الحركة المثالية في إنجلترا لم يكن إذن وليد الصدفة، بل نتاج لحركة أدبية نشطة كان لها الدور البارز في تغيير و تكسير التقليد الفلسفي الذي عرفته إنجلترا أمدا طويلا

من الزمن. فلقد " كانت لفلسفة كولردج أهمية .. فمع هذه الفلسفة تدفق إلى إنجلترا لأول مرة بحري واسع من المثالية الألمانية " (10)

و لا يقتصر الحديث و نحن نتحدث عن التحول الفلسفي في الفكر الإنجليزي على كولردج فقط، لقد كان لهذا الأخير أثره الهام أدبيا و تاريخيا و لكنه ليس لوحده، فهناك لقيف آخر من المفكرين كرسوا المثالية و نقلوها إلى الفكر الإنجليزي، نذكر توماس كارليل (1795- 1881)، " فإليه، أكثر من أي شخص غيره، يرجع الفضل في إحداث التغيير الذهني الكامل الذي وقع في أيامه، و تهيئة الأرض للبذرة الجديدة " (11). و آخرون من بعده سحروا فكرهم و قلمهم لتوطيد هذه الموجه الجديدة من التفكير و تركوا بعد رحيلهم تراثا هاما، يعتبر اليوم مرجعا هاما لكل دارس يعتني بالتراث المثالي الذي عرفته إنجلترا في تلك الفترة من تاريخها كذلك نشير إلى أن العديد من المفكرين وقتذاك كان شغلهم الشاغل هو تكوين تلامذه مخلصين لهم يواصلون المشوار و يضيفون جديدا معرفيا بعد رحيلهم. و يلاحظ أن النشاط المعرفي الذي كان وليدا عن إمتداد الفلسفة الألمانية إلى إنجلترا كان قد استقر في جامعات هذه الأخيرة، و نذكر على وجه الخصوص جامعة أكسفورد (12) و هي الجامعة نفسها التي كان يدرس بها كولنجوود.

يتفق برتراند راسل (1872 - 1970) (BERTRAND RUSSEL) مع رودلف متس في أن المثالية في الفكر الإنجليزي كان مصدرها ألمانيا، و أن هذا التحول المعرفي إنما كان نتيجة الإحتكاك الثقافي و العلمي بين البلدين و يذهب إلى القول بأنه بنهاية القرن التاسع عشر " كان قادة الفلاسفة الأكاديميين في أمريكا و في بريطانيا العظمى معا، هيجلين على نطاق واسع " (13).

في سياق حديثنا عن المثالية الإنجليزية، أو المثالية الجديدة، و التي نعتقد أن كولنجوود هو إمتداد لها، تعرضنا إلى مؤرخين هما رودلف متس و برتراند راسل كمرجعين للمبحث في هذه المسألة، فأينا كيف يرى كل واحد منهما دخول المثالية إلى إنجلترا، وكيف يعالج الواحد منهما تأثيراتها و كذا نتائجها.

فإذا كان رودلف متس، وهو الألماني الجنسية، قد تحمس لثراث بلاده الذي يصبر على أنه غزا إنجلترا بعد حوالي قرن من وفاة هيجل، بحيث يقول بشيء من الحماسة : أن الفلسفة

الألمانية ممثلة في كانط و هيجل هي التي خلصت الإنجليز من التعصب لثرائهم القومي المتمثل في الفلسفة التحريية. ففضل الألمان ظاهر و لا غبار عليه في هذا المجال.

أما برتراند راسل، و هو المرجع الثاني الذي إعتدناه في تحري المسألة، فإنه على الرغم من أنه يتفق مع رودلف متس (14) في النقطة التي تذهب إلى تبني الفلاسفة الإنجليز التيار المثالي الألماني، فإنه أقل حماسا في التعبير عن ذلك، غير أن النتيجة التي تمثل القاسم المشترك بينهما، هي أن هيجل كان حاضرا في جامعات إنجلترا حضورا له أهميته وقتئذ، و أن المثالية الإنجليزية في صورتها الجديدة أفرزتها ظروف الإحتكاك بالألمان و نتاجهم الفكري.

و الخلاصة الممكنة استنتاجها هي أن التيار المثالي الجديد كان دخيلا، و لم يكن أبدا إمتدادا تاريخيا في الفكر الإنجليزي و لم تكن له أرضية يمكن الإستناد عليها قبل ظهور هيجل و كتاباته الفلسفية.

ب- موقف ميورهد:

يختلف موقف الإنجليزي ج. ميورهد (J.H MUIRHEAD) عن موقف متس و راسل، ففي كتابه : التراث الأفلاطوني في الفلسفة الإنجليزية

(THE PLATONIC TRADITION IN ANGLO-SAXON

PHILOSOPHY) سنة (1931)، يحاول ميورهد أن يثبت أن الحركة المثالية في إنجلترا هي إمتداد متصل في مسيرة الفلسفة الإنجليزية، قائلا أن الفلسفة المثالية في إنجلترا لم تتأصل مع تعلق فلسفة هيجل في إنجلترا، و أن فلاسفة من أمثال " اريجينا (ERIGENA)، دون سكوت (DUN SCOTUS) و يكليف (WYCLYF)، و أفلاطوني كامبردج و الفلاسفة السكوتلانديين، و المثاليين المطلقين شكلوا ما يسميه ميورهد " التراث الأفلاطوني في الفلسفة الأنجلو سكسوية " في كتابه الذي يحمل نفس العنوان " (15).

لكن الحركة المثالية الإنجليزية - في رأينا - ذات مصادر ألمانية، فإن كان الفكر الإنجليزي الذي اشتهر بمدارسه التحريية الحسية قد عرف بعض الشطحات المثالية فإن ذلك لا يمنع من القول بأن دخول الفكر المبهجلي في أفق الفكر الإنجليزي، جعل للمثالية طابعا حديدا و مميزات، و كانت هزة فكرية إعتبرت حدثا بارزا وقتئذ.

هذا عن الخلفية الفلسفية للمثالية في إنجلترا قبل القرن العشرين. إن هذه الحركة الفلسفية تعيد إلى الأذهان دوما حركة التغيير المستحدث في الأنماط الفكرية الجديدة و الإضافات التي استقبلتها العقلية الإنجليزية بترحاب و استعداد معرفي لإحتواء التراث القادم من ألمانيا و الذي أحدث إحتواؤه تحويلا معرفيا هاما و إثراء عميقا للفكر الفلسفي الإنجليزي. و لقد أثرت المثالية الألمانية أيضا على فيلسوفنا كولنجوود، و يظهر ذلك واضحا من خلال إطلاعه على الإنتاج الفلسفي لهيجل، و إنتقاده له في أكثر من نقطة في المقال (16) الذي خصه به في فكرة التاريخ، و هذا يعني أن كولنجوود إطلع على إنتاج هيجل و تأثر به، و ترك فيه إنطبعا معينا و تأثيرا فكريا سيضاف إلى الإرث المعرفي الكولنجوودي.

لقد رأينا أنه لا يمكن أن نبث في مثالية كولنجوود دون الرجوع إلى جذور المسألة، ولا ندعي في هذه العجالة أننا قد أحطنا بالموضوع إحاطة كلية و شاملة خاصة و أن غرضنا هنا ليس الإسهاب في هذه النقطة، و لكننا نقول أننا حاولنا أن لا نمر عليها دون تقديم مسروعات تاريخية و معرفية لنشأتها. ثم إن غرض البحث ليس تأثير الفلسفة الألمانية على الفلسفة الإنجليزية إلا بقدر ما تشكل هذه النقطة من أهمية للبحث و نظرا لذلك فإن الضرورة المنهجية إضطرتنا إلى التعرض إلى هذه المسألة التاريخية التي هي، في نظرنا، وثيقة الصلة بموضوع هذا البحث.

- الأسباب التي حالت دون انتشار فلسفة كولنجوود:

كنا قد طرحنا السؤال في صفحات سابقة عن سبب عزلة كولنجوود و عدم ظهور مؤلفاته على تنوعها و كثرتها ؟ إننا نرى لذلك مبررات تاريخية حجبت الفيلسوف عن الظهور لفترة طويلة من الزمن، حتى إنتاجه لم يكن ليعرف إلا بعد وفاته حيث احتته بعض الدراسات و البحوث الجامعية فيما بعد.

يتزامن إنتاج كولنجوود الفلسفي مع مطلع القرن العشرين إعتبارا من أول كتاب طبع له و هو كتاب الدين و الفلسفة سنة (1916 م). و لقد كانت فلسفته فلسفة نسقية شأنها شأن فلسفة هيجل الناضرة إلى المعرفة نظرة شمولية، و إلى الفلسفة على أنها في صميمها عقلية و محاولة لصياغة المعرفة الإنسانية في صورة نسقية.

غير أن فلاسفة اكسفورد في هذه الفترة، كانوا قد تخللوا في فلسفاتهم عن هذه النظرة و كان الفكر يتغير بسرعة في إنجلترا، و على الرغم من هذا التغير، فإن كولنجوود لم يسر في ركاب هذه التغيرات، وقد يفسر لنا هذا عدم بروز فلسفته الوفية لفكرة النسق في هذه المرحلة التاريخية الحاسمة و تغطية فلسفات أخرى لإنتاجه.

و لكن كيف كان الفكر يتغير بسرعة في إنجلترا، و على وجه الخصوص في بعض الجامعات ذات الشهرة التاريخية كأكسفورد مثلا ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال نقول أن الإهمال أو التهميش الذي تعرض له كولنجوود كان ظاهرة عامة في فلسفة القرن العشرين، و بصفة أحص في العالم الانجلو سكسوني، فلماذا يا ترى تحتجب في هذه الفترة التاريخية فلسفات هامة و لم يعد يعتني بأنساق فلسفية بارزة أو كانت بارزة، و يلقي هذا المصير من الإهمال و التهميش على سبيل المثال : جون ديوي في أمريكا، هيجل و ماركس في ألمانيا، ثم كولنجوود في إنجلترا ... ؟ هل لأن فلسفاتهم أصبحت لا تستجيب لفلسفة العصر و أطروحاتها المعرفية ؟ أم لأن هناك بديلا معرفيا جديدا جعل الناس ينثرون فيه ثقة قوية تجعلهم ينصرفون على الأنماط المعرفية التي عهدوها و أصبحت قدمة في رأيهم؟ إجابة عن هذه الأسئلة و السؤال الذي طرحناه في البداية نقول : إن حقيقة ما جرى يعزى إلى ظهور فلسفة جديدة هي الفلسفة التحليلية التي لاقت إنتشارا سريعا جعل منها فلسفة العصر و البديل المعرفي الجديد و الفعال الذي ثم إعتناقه في الأوساط الفلسفية بحماس كبير.

أ - الفلسفة التحليلية في الدوائر المعرفية

برزت في النصف الأول من القرن العشرين، فلسفة جديدة هي الفلسفة التحليلية التي تدور مواضيعها حول تحليل اللغة العلمية لتهتم بعد ذلك، و هذا تحت تأثير الفلسفة المتأخرة لفتحتشتاين (L.WITTGENSTEIN)، باللغة العلمية و بهذا تم التراجع عن المسائل التقليدية التي كانت تعالجها الفلسفة.

و كان نتيجة لذلك أن رفض فلاسفة المدرسة التحليلية الميتافيزيقا كمبحث فلسفي، بل لقد أظهروا عداا شديدا لها باعتبارها مبحثا عميقا لا يتماشى و النشاط الجديد الذي تعرفه

الفلسفة. و النشاط الفلسفي كما تقصده هذه المدرسة هو التحليل، و كل ما يشد عن هذا المنهج لا يعتبر تفلسفاً.

كانت الفلسفة التحليلية ضد فكرة بناء الانساق على طريقة هيغل و ضد فكرة تنظيم المعارف في منظومة فلسفية شاملة، بما في ذلك الميتافيزيقا، الأخلاق، السياسة .. فالنسق يؤدي بالضرورة إلى الميتافيزيقا، و هذا ما ترفضه الفلسفة التحليلية في المعنى التقليدي الهيجلي له، وليس ضد فكرة النسق في حد ذاته، فقد هدف فلاسفة التحليل بدورهم إلى تنسيق المعرفة العلمية و معناه وضع المعرفة العلمية في نسق.

واضح إذن أن الفلسفة التحليلية هي العدو اللدود للميتافيزيقا لذلك دعا أقطابها إلى محاربة المقولات الميتافيزيقية القائمة فقط على التأمل و الابتعاد عن الفلسفة الأخلاقية و مسائل اللاهوت، و لا يمكننا أن نستثني في هذا السياق إلا برتراند راسل الذي ساهم بموضوعات في السياسة و الأخلاق و كذلك وابتعد (17) (WHITEHEAD) الذي غامر فكرياً في مجال الدين و الميتافيزيقا و التربية و الحياة.

ضمن هذه الفلسفة الجديدة، راح فلاسفة التحليل يبحثون عن مفاهيم جديدة لمصطلحات قديمة تتناسب و المعنى الذي أريد لها. و حاولوا جاهدين إفراغ بعض المفردات التي تكرست من قبل من محتواها الميتافيزيقي و إيجاد محتوى علمي يتعارض مع التوجه الجديد الذي تشهده الفلسفة. و لذلك لم يكونوا يهتموا بوضع فلسفة أخلاقية و كان " أكثر إهتمامهم موجه إلى إيجاد ما تعنيه كلمات مثل " صالح "، " صواب "، " و خطأ " (18).

و يعتقد راسل أن تخلي الفلاسفة الجدد عن المناهج التقليدية قد عاد بالفائدة على الفلسفة و تتمثل هذه الفائدة في " إكتشافهم أن كثيراً من الأسئلة التي كانت في السابق مغمورة في ضباب الميتافيزيقا، يمكن الإجابة عليها بدقة، و بمناهج موضوعية لا تدخل شيئاً من مزاج الفيلسوف اللهم إلا الرغبة في الفهم " (19). و يواصل قائلاً : " خذ أسئلة من قبيل : ما العدد ؟ ما المكان و ما الزمان ؟ ما الذهن ، و ما المادة ؟ أنا لا أقول أننا نستطيع، هنا و الآن، أن نعطي إجابات محددة لجميع هذه الأسئلة القديمة، و لكنني أقول أن منها قد اكتشف، نستطيع به، كما في العلم، أن نقوم بإقترابات متعاقبة من الحقيقة " (20).

- تفرغات المدرسة التحليلية :

تحدثنا فيما سبق عن الفلسفة التحليلية، التي إتخذت التحليل منهجا في البحث الفلسفي و لكن هذه المدرسة هي الإسم الشامل الذي تحمله فئات أخرى أو تفرعات و إتجاهات لما يسمى بالفلسفة التحليلية. فالتحليل لا يؤدي بالضرورة إلى نفس الأطروحات عند المدارس الأخرى التي تنتمي جميعها إلى الفلسفة التحليلية.

ينضوي تحت لواء المدرسة التحليلية مايلي:

1- الواقعية الجديدة : إتجاه في الفلسفة الأنجلو - أمريكية في ق 20 ممثلها الرئيسي مور و راسل. فقد تبينا بعض الاطروحات الانطولوجية، الذرة المنطقية (راسل) وواقعية الحس المشترك (مور). و يعتبر مور و خاصة برتراند راسل اب الفلسفة التحليلية.

2- الوضعية المنطقية : نشأت في العشرينات في فينا، و سمي مؤسسوها ب " جماعة فينا ". و ثرات الوضعية المنطقية مستمد من فلسفة أرنست ماخ (E.MACH) ، و من مبادئها أنه لا يمكن قيام فلسفة علمية إلا بواسطة التحليل المنطقي للعلم، ووظيفة هذا التحليل بالدرجة الأولى التخلص من الميتافيزيقا و يعد هذا شرطا أساسيا للوضعية المنطقية.

تبنت المدرسة الوضعية تقنيات راسل و بعض أطروحاته، أهمها أن وظيفة الفلسفة هي تحليل اللغة العلمية.

تأسست الوضعية المنطقية في سنة (1924) من طرف موريس شليك MORITZ

(1882 - 1936) (SCHLICK) بالتعاون مع الفيزيائي ب. فرانك (PH. FRANK) و الرياضي هانز هان (1880 - 1934) (HANS HANN) و عالم الاجتماع أوتونويراث (1882 - 1945) (OTTO NEUWRATH) ، و المنطقي رودلف كارناب (1891 - 1970) (RUDOLF CARNAP) .

تشكل " حلقة فينا " النواة الأساسية الأولى للوضعية المنطقية، و كان أنشط عضو فيها رودلف كارناب، رغم أن هذا الأخير إلى جانب همبل (HEMPEL) و اير

(AYER) تكشفوا آهاتهم الأخيرة بشكل واضح تحولهم عن الوضعية المنطقية في صورتها الأولى.

قامت الوضعية المنطقية بتقصير التحليل المنطقي على الخطاب العلمي المتمثل في العلوم الطبيعية، خاصة الفيزياء و الرياضيات كما هو عند برتراند راسل. كما أن وظيفة الفلسفة عنده هي تحليل اللغة العلمية، تحليل الفيزياء، التي هي لغة العلوم أساسا أي لغة العلوم الطبيعية. كانت الوضعية المنطقية ترى أن مهمة الفلسفة هي إيضاح القضايا العلمية و تقرير معناها، و ذهب اشياخ مذهب الوضعية إلى تشكيل خطاب معرفي جديد بعد دحض الميتافيزيقا كما فعل مثلا أ. ج. آير (21) (A. J. Ayer). في الفصل الأول من كتابه: اللغة، الصدق و المنطق، LANGUAGE TRUTH AND LOGIC يحاول آير أن يقضي على الميتافيزيقا كما يدل على ذلك عنوان الفصل "القضاء على الميتافيزيقا"

"THE ELIMINATION OF METAPHYSICS". هذا القضاء الذي يتخذ شكل النقد، أي نقد اللغة الميتافيزيقية التي حسب آير، تزعم أنها تقرر حقائق حول موضوعات معينة غير أنها بعد التحليل يتبين أن قضاياها فاسدة لأنها لا تستوفي الشروط التي تجعل قضية ما ذات معنى.

إن آير يتبع إجراء معيناً ليثبت صحة دعواه، و ما يعرف ب "مبدأ الاختيار و التحقق " PRINCIPLE OF VERIFICATION " الذي يصوغه صياغة عامة عندما يقول: " الجملة تكون ذات معنى حقيقي إذا وفقط إذا كانت القضية التي تعبر عنها أما تحليلية أو قابلة للاختبار تجريبيا ". (22) و بإتخاذ آير مبدأ التحقق مقياسا لمعنى القضايا يصدر حكمه السلبي على الميتافيزيقا " و بناء على ذلك يمكننا أن نعرف الجملة الميتافيزيقية بأنها جملة تزعم أنها تعبر عن قضية أصيلة، و لكنها في الحقيقة لا تعبر عن تحصيل حاصل و لا فرضية تجريبية.... إن كل التصريحات الميتافيزيقية هي خالية من المعنى " (23).

و هناك من بين الوضعيين المناطقة من صنفوا أنفسهم على أنهم تجريبيون مناطقة أمثال: رايشنباخ (H. REICHENBACH)، و قد إنتشرت الوضعية المنطقية خارج موطنها الأصلي في بريطانيا و أمريكا، و يمثلها في الوقت الحالي آير في بريطانيا، و يلاحظ أنه حدث اندماج بين المناطقة الوضعيين النمساويين في " جامعة فينا " (كارناب - شليك - نوراث) و جمعية برلين للفلسفة العلمية (رايشنباخ - هبل) و التحليليون الإنجليز و عدد من الأمريكين من اتباع فلسفة العلم.

3 - فلسفة اللغة العادية : بعد الواقعية الجديدة و الرضعية المنطقية هناك حركة في الفلسفة التحليلية ذاتها تسمى فلسفة اللغة العادية، و يرجع إنتشارها إلى تأثير لودفيج فيتجنشتاين (1889 - 1951) (LUDWIG WITTGENSTEIN) () بكتابه الذي كان نقطة تحول من الإهتمام بالخطاب العلمي و الرياضي إلى الخطاب العادي و هو كتاب أبحاث فلسفية، HILOSOPHICAL INVESTIGATIONS . هذا الكتاب لم يكن ضد بناء الأنساق الفلسفية التي رفضها الفلاسفة التحليليون فقط، بل ضد كل بناء نسقي، حتى و إن كان علميا. و نتيجة لهذا التأثير ظهر فلاسفة أمثال :

جلبرت رايل (GILBERT RYLE) ولد سنة 1900 ، و ب.ف ستروسن

(P.F STRAWSON) ولد سنة 1919 ، و ج.ل أوستن

(J.L AUSTIN) (1911 - 1960).

إن الذي أصبح يميز الفلسفة بالدرجة الأولى إهتمامها بالتحليل و مشاكل المنهج و طغيان طابع التخصص عليها، " فلم نعد نجد في أيامنا هذه تركيبات فكرية هائلة أو مذاهب فلسفية ضخمة، بل أصبحنا نلتقي بنزعات تحليلية يهتم دعائتها بالمنهج " (24). تعرضنا إذن إلى ثراث الفلسفة التحليلية المتنوع بشكل مخترل لأن المقام لا يتسع إلى الدخول في تفاصيل قد تصرفنا عن الهدف الأساسي للموضوع، و قد تعرضنا إلى تأثيرات هذه الفلسفة في محاولة للإجابة عن السؤال الذي كنا قد طرحناه منذ البداية، و المتمثل في الأسباب التاريخية و المعرفية التي جعلت فلسفة كولنجود تحتجب عن الظهور لفترة طويلة من الزمن و لا تلقى من العناية و الدراسة ما لقيته فلسفات و مذاهب أخرى عاصرها الفيلسوف. و كنا قد رأينا أن ظهور هذه الفلسفة الجديدة قد ساهم مساهمة كبيرة في ما نسميه بعزلة معرفية لأفكار كولنجود الفلسفية.

فإذا كانت الفلسفات التي عرفتها الدوائر المعرفية قبل ظهور الفلسفة التحليلية هي من أهم الفلسفات التي بذلت أقصى جهودها في مناقشة و بحث المسائل الأخلاقية و الدينية و الميتافيزيقية، و الارتباط بفكرة النسق في المعنى الهيكلية له، فإن هذه الفلسفات المثالية سوف لا تلقى الإهتمام السابق، خاصة بعد تصاعد الموجة الجديدة من الفكر، التي لقيت إقبالا كبيرا من طرف المشتغلين بالفلسفة بل ستوجه لها انتقادات عنيفة، و ستعتبر موروثا فلسفيا فقد قيمته

المعرفية و تبينت عدم قدرته في الإحاطة على الإشكاليات المعرفية و لم يحتفظ هذا المـسـرورث إلا بقيمته التاريخية فقط.

و المثالية الجديدة التي عاشت طويلا في جامعات العالم الانجلوسكسوني و بتأثير من هيجل و في جامعة اكسفورد على سبيل الحصر، سوف لا تستطيع هي الأخرى الوقوف في وجه الفلسفة الجديدة، و حتى و إن أريد لها أن تستمر بدعم من أتباعها و مريديها فلن يكثر لها كثرا.

و في هذا الوضع الجديد فمن الطبيعي جدا أن أي إنتاج فلسفي تم على الطريقة التقليدية سيصبح مصيره التجاهل، و أي فيلسوف يظهر في هذه الفترة بالطريقة المذكورة لن يلقى الإهتمام و لا الترحيب بأفكاره. و لعل لهذه العوامل الدور الرئيسي في بداية تراجع المد القوي الذي شكلته المثالية في مرحلة هامة من مراحل ازدهارها.

لقد وصلت الحركة المثالية الجديدة أوج قمتها قرب نهاية القرن التاسع عشر (19) خاصة في مقر الحركة جامعة اكسفورد، و كانت حتى وقت متأخر هي الفلسفة البارزة، و لكنها بعد ذلك بدأت تتعرض لهجمات عنيفة شنتها تيارات فلسفية جديدة تعرضنا لها فيما سبق. فالواقعية الجديدة مثلا خاضت هجوما عنيفا عليها و خطيرا في ذات الوقت، و كان أن تفوقت الواقعية الجديدة في هذا المحوم بسبب " وثوق الصلة بينها و بين العلوم الطبيعية، و بالتالي تلبيتها لحاجة ملحة في ذلك الوقت، ظلت المثالية تتجاهلها زمنا طويلا " (25). و نلاحظ أن الواقعية الجديدة التي أحيها مور (MOORE) ، جعلت المثالية تبدأ في الإنهيار بعدما سيطرت على الدوائر المعرفية في أواخرنا زمنا طويلا، " و كان هذا الإحياء | للواقعية الجديدة [قد قواه] دعمه [راسل بنقده للمنطق المثالي " (26). و لننتقل الآن إلى سبب آخر لإنطفاء شعلة المثالية..

ب - الموت المتتالي لرواد المثالية في المنجلد.

ساعد على أفول المثالية أيضا الموت المتتالي لروادها، كما سنرى، فبوزانكيت، يتوفى سنة (1923) و برادلي سنة (1924) ماكنجارت وورد سنة (1925)، و هولدين سنة

(1928)، و برنجل باتيسون سنة (1931) فسورلي سنة (1935) وأخيرا ماكنري سنة (1936) و تتواصل القائمة.

و تراجع المثالية في إنجلترا فاسحة المجال لفلسفات جديدة، لا يعني أبدا أن المثالية قد انطفأت تماما، إنها بقيت تحيا عند الأقلية من المثاليين الباقين، و لو في حماسة أقل، و في نطاق أضيق. و نجد أنه من المعقول جدا - وسط هذه الأحداث الجديدة - أن انبعاث المثالية من جديد و بنفس القوة التي شهدتها سابقا في أيام انتشارها، بات مطلبا صعب المثال، وبات من المؤكد أن أية محاولة للتسير في التيار المثالي سيحابه بالرفض، أو عدم الإكثارات له.

قد تبرر لنا هذه الحداثة الفلسفية وقتئذ و هذا الظهور القوي لفلسفات جديدة، عدم انتشار فلسفة كولنجوود و لا ذبوع فلسفته في الأوساط المعرفية و الأكاديمية، علما بأن فلسفة كولنجوود كانت مازال تسير في تيار المثالية، واستمر فكر كولنجوود وفيا للفلسفة كنسق معرفي شامل.

- فلسفة التاريخ و الإنجليز.

لماذا لم يكن لفلسفة التاريخ حضور في إنجلترا إلا في السنوات الأخيرة ؟
لقد اعتنت الفلسفات الأوربية في وقت مبكر من تاريخها الطويل بفلسفة التاريخ، و أبرز هذه الفلسفات نجد الفلسفة الألمانية في الدرجة الأولى و يظهر ذلك من خلال الإنتاج الغزير لها في هذا الحقل المعرفي، و يلي الفلسفة الألمانية، الفلسفة الفرنسية، فالفلسفة الإيطالية، أما بالنسبة للفلسفة الإنجليزية فإن الدارس يلاحظ تأخر ظهور هذا البحث إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فما هو مبرر غياب هذا البحث في الفلسفة الإنجليزية إلى وقت متأخر ؟
لم تثر فلسفة التاريخ اهتماما يمكن أن يذكر في الفلسفة الإنجليزية، و كانت محدودة الأثر، و لذلك كان الإنتاج الفكري في هذا المجال يكاد لا يذكر إلا نادرا، إذا ما إستثنينا بعض المحاولات القليلة و نذكر على سبيل المثال، محاولة برادلي (BRADLY) المعنونة :

THE PRE -SUPPOSITIONS OF (27) النقد

CRITICAL HISTORY في سنة (1874).

و يرجع هذا النفور من هذا المبحث و تأخر الإهتمام به ضمن المباحث الفلسفية في الفلسفة الإنجليزية إلى بعض الخصائص التي طبعت هذه الأخيرة . عندما إفتتح ديكارت الفلسفة الحديثة بكتابه خطاب في المنهج، جعل معيار اليقين في جميع العلوم الرياضيات، و سرت هذه الفكرة فيما بعد إلى الفلسفة الأوربية في القرن السابع عشر، و بقيت تتخلل الإنتاج الفلسفي الذي أفرزه الفكر في هذه الفترة التاريخية، و مال الإعتقاد إلى أن العلوم الطبيعية وحدها هي محور البحث الفلسفي.

و يعثر الدارس للفلسفة الإنجليزية و خاصة في القرنين السابع عشر و الثامن عشر على هذا التواصل في معالجة المشكلات الفلسفية التي لم تخرج عن الإطار الذي تحدد للفلسفة الأوربية، و هي تفتتح عصر الحداثة بفكرة قيام المعرفة على العلم الطبيعي فقط.

لقد كان من أهم خصائص الفلسفة الإنجليزية التي عرفت بمدارسها الحسية التجريبية الإبتعاد عن المواضيع المحيلة إلى الميتافيزيقا و التأمل، و الخوض فقط في المسائل الفلسفية ذات الأساس العلمي و التجريبي - كما تعتقد - لذلك كان التصور التقليدي لفلسفة التاريخ عند الفلاسفة الإنجليز ما يزال يعتبر التاريخ مبحثا ميتافيزيقيا (28) لا يمكن أن تستسيغه العقلية الإنجليزية و لا أن تخصصه ببحوث أو دراسات.

و ساد هذا الإعتقاد إلى وقت متأخر. و إذا كان علينا أن نحدد البدايات الحقيقة لهذا النوع من الدراسات الفلسفية، فإننا نذهب إلى القول بأن ذلك يرجع إلى بداية القرن العشرين.

و كان لأسلوب المعالجة الألمانية للتاريخ على يد الفلاسفة الألمان كهيجل و هردر (HERDER) قبلهما نذكر محاولة كانط (29) (KANT) (و غيرهم من الفلاسفة الألمان، إنطباع سيء لدى الفلاسفة الإنجليز الذين لم يجذبوا المعالجات التأملية لمسائل الطبيعة و التي تسعى إلى رسم لوحات كبيرة للعالم، هذا المسلك في نظر الإنجليز من شأنه أن يصرف الدراسة الفلسفية عن فهم الحقائق، لأنه لاشيء يكشف الحقيقة الفلسفية مثل التجربة الحسية.

و موقف فلسفي كهذا من طرف الإنجليز جعلهم يتنكرون للفلسفة الطبيعية على النحو الذي عولجت به من طرف الفلاسفة الألمان كهيجل و شلنج، وهكذا تحولت كراهيتهم من فلسفة الطبيعة إلى كراهيتهم لفلسفة التاريخ، فقد نظر إلى المبحثين هذين و كأنهما ضرب

ضروب العبث (30) و لم يدمج التاريخ ضمن المشكلات الفلسفية، و لهذا السبب كما يؤكد ذلك رودلف متس : " لم يكد إحياء الموقف الفلسفي من التاريخ في القارة الأوروبية، أي في ألمانيا و فرنسا و إيطاليا، يجد أي صدى في إنجلترا، بل أنه لا يمكن أن يكون هناك، بين صفوف المهيجلين الإنجليز، أي اعتراف بمشكلة التاريخ أو أية تغييرات لجرى التاريخ على النحو الذي عرضه هيجل ذاته " (31).

إن الفلسفة الإنجليزية التي طبعها التحريب كشأن كل الفلسفات العلمية تقوم بالفصل بين الذات و الموضوع في مباحثها الفلسفية، و لأن هذه المسألة يصعب إتقانها في التاريخ، فقد ظل التاريخ معزولا عن الفلسفة لما يطرحه من صعوبات منهجية لا يمكن الوصول فيها إلى إجماع أما في حالة تناوله بالدراسة فإن ذلك لا يتعدى أن يكون من وجهة نظر العلوم الطبيعية و محاولة تطبيق منهج هذه العلوم على الدراسة التاريخية، مثل ما قام به الإنجليز باكل (32) (BUCKLE) الذي تأثر بنظرية التطور الداروينية و حاول تطبيق منهجها على التاريخ في كتابه : الحضارة البريطانية. و هذا الموقف بدوره لم يسعف الدراسات التاريخية على التقدم مادام تشييء التاريخ و تطبيق المنهج العلمي عليه هما محورا العمل.

لم يخف كولنجوود أبدا إستيائه الشديد من كيفية تعامل الإنجليز مع مبحث التاريخ، و انتقد قصورهم و تقصيرهم في هذا المجال، و اعترف بأن الفلسفة الإنجليزية لم تساهم مساهمة كبيرة لو فعالة، و إذا كانت لهذه الأخيرة إضافات معرفية فإنها جد متواضعة و جاءت متأخرة جدا. و راح يقول في هذا الشأن : " أما فلاسفة الإنجليز الآخرون الذين عرضوا لمشكلة التاريخ منذ عهد برادلي فلم يضيفوا شيئا له قيمته حتى بضع السنوات الأخيرة .. و بوسانكيه الذي كان وثيق الصلة ببرادلي نفسه، عالج التاريخ باحتقار صريح، على أنه ضرب من التفكير الخاطيء و أنه " قصة الأحداث المتعاقبة التي نرمقها بعين الشك " (33).

و في سياق آخر يضيف قائلا : " و أحد نفسي، حين أقرأ مؤلفات الفلاسفة الإنجليز حتى هؤلاء المعاصرين العظماء منهم الذين أعجبت بهم إنما إعجاب و تعلمت منهم ما لا أستطيع إحصاءه أو تقديره، شديد القلق الدائم، لأن عرضهم لنظريات المعرفة، عرضا يستند في الأصل إلى دراسة الإدراك الحسي و التفكير العلمي، لا يتجاهل التفكير التاريخي فحسب، و لكنه في نفس الوقت يتعارض مع وجود شيء اسمه التفكير التاريخي " (34).

إن هذه المواقف الصريحة من كولنجوود من شأنها أن تخول لنا القول بأن الرجل أحدث ثورة معرفية حقيقية، وهى الأرضية لمفاهيم جديدة في فلسفته التاريخية كانت غريبة على التراث الفلسفي في إنجلترا " فاختلف لذلك عن الفلسفة التقليدية البريطانية التي لا ترى ضرورة لعناية الفلاسفة بالتاريخ لأن التاريخ للمؤرخين ... " (35) و يدخل التاريخ بذلك ضمن الاهتمامات الكبرى للفلسفة. و لعل الرجوع الى كتاب فكرة التاريخ (36) خير من يوضح هذه القضية و يجعل منه واحد من أهم النصوص الفلسفية في التاريخ في القرن العشرين.

إن الأسئلة التي سوف تنكسر في فكرة التاريخ هي من صميم فلسفة التاريخ التي تبحثها نظرية المعرفة عند كولنجوود . و فلسفة التاريخ مبحث فلسفي يقوم على مناقشة التاريخ من حيث موضوعه ، منهجه ، و قيمته المعرفية في اطار ما يسمى بالمعرفة التاريخية التي يريد لها كولنجوود أن تكون مبحثا فلسفيا مستقلا لا ينضوي تحت أي لواء معرفي آخر . الى هذا الحد يكون بمقدورنا أن نتبين الدلالة الكولنجوودية لـ " فلسفة التاريخ " و نفهم العاراة التي أوردها في الصفحات الأولى من كتابه فكرة التاريخ حين قال " هذا الكتاب بحث في " فلسفة التاريخ » .

و النظرية التاريخية عند كولنجوود توظف المفاهيم العلمية ، فالتاريخ يقوم على الاستدلال ، و يوظف أيضا مفاهيم أخرى كالتسببية مثلا و لكن هذه المصطلحات طابع متميز لأن العامل الحاسم في التاريخ هو الانسان.

لقد أنجبت الفلسفة في ظل هذه النظرية التاريخية لكولنجوود أفكارا جديدة أصيقت الى فلسفة التاريخ في القرن العشرين التي اهتمت أكثر ما اهتمت بحث العلاقة بين الذات العارفة (المؤرخ) و موضوع المعرفة (الماضي) ، فالماضي في حد ذاته لا يمكن معرفته ، فنحن نعرف فقط ما نملكه من تصورات عنه نغذيها بأدوات معرفية ، فالقابل للبحث هنا هو الماضي كما يظهر للكاين العارف ، و ما يطرح معرفيا هو ما يكون قابلا لذلك ، و الفكر عند كولنجوود هو التاريخ و هو القابل للمعرفة.

الهوامش

- (1) تأتي حركة الإهتمام بفلسفة كولنجوود، خاصة، بعد نشر بعض كبه الهامة التي لم تظهر إبان حياته، و نعي هنا كتابه فكرة التاريخ و فكرة الطبيعة، و بعض مقالاته الأخرى. كذلك فقد أمكن التعريف به بفضل بعض الدارسين الرواد ، و نذكر منهم : ت.م نو كس (T.M.KNOX) الذي كتب المقدمتين للكتابين، وكذلك ألان دونانغان (A.DONAGAN) و توملان (TOMLIN) أما الدراسات بالعربية فهي غير موجودة بإستثناء بعض المقالات المختصرة و العامة جدا متناثرة في بعض المجلات العربية.
- (2) هو من المتخصصين و الأوائل الذين كتبوا في فلسفة كولنجوود له:

THE LATER PHILOSOPHY OF R.G OLLINGWOOD
(OXFORD, 62) TREATS OF COLLINGWOOD'S WORK AFTER
1933.

(3) WILBUR LONG, " IDEALISM, " IN THE DICTIONARY OF
PHILOSOPHY, ED, BY, DAGOBERT.D. RUNES, (NEW YORK :
PHILOSOPHICAL LIBRARY).

(4) للإطلاع على هذه المسألة بشكل واسع راجع: عبد الرحمن بدوي، المثالية الألمانية، (القاهرة : دار النهضة العربية، 1965).

(5) هنري أيكين، عصر الإيديولوجيا، ترجمة محي الدين صبحي، مراجعة عبد الحميد حسن، (دمشق، منشورات وزارة الثقافة، (1971)، ص 85.

(6) G.WATTS CUNNINGHAM, " NEO HEGELIANISM ", IN THE
DICTIONARY OF PHILOSOPHY, ED, BY
DAGOBERT.D.RUNES.

(7) رودلف متس، الفلسفة الإنجليزية في مائة عام، ج1، ترجمة فؤاد زكريا، مراجعة زكي نجيب محمود، (القاهرة : دار النهضة العربية، 1963) ص. 287.

(8) المرجع نفسه، ص. 308.

(9) المرجع نفسه، ص. 289 - 90.

(10) المرجع نفسه، ص. 290.

(11) المرجع نفسه، ص. 294.

(12) كانت معقلا للمثالية، و هي مركز إشعاع معرفي، فقد كانت و ماتزال منبرا علميا للعديد من المؤتمرات الفلسفية التي تنعقد هناك، إلتحق بها كولنجوود سنة (1908)، تولى التدريس بها سنة (1913) حتى تقاعد سنة (1941).

(13) برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ترجمة فتحي الشنيطي، القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب، (1977)، ص. 351.

(14) ألماني من أشهر المتخصصين في التأريخ للفلسفة الإنجليزية المعاصرة، كتب و ترجم إلى الألمانية عدة كتب تناول الموروث الفلسفي الإنجليزي، له علم غزير بموضوعات الفلسفة الإنجليزية وقد كتب عن باركلي، هيوم .. سعى رودلف متس إلى إثبات أن الحركة المثالية الجديدة كانت مستوردة من ألمانيا إلى إنجلترا.

(15) AN THONY QUINTON, " BRITISH PHILOSOPHY ", IN PAUL EDWARDS (ED), THE ENCYCLOPEDIA OF PHILOSOPHY, VOLUME 1, (NEW YORK : THE MACMILLAN COMPANY AND THE FREE PRESS, 1967), P 370.

(16) أنظر فكرة التاريخ من ص. 210 إلى ص 223. في نقد كولنجوود لهيجل ورد في هذا المقال بأن هذا الأخير قد ارتكب أخطاء في كتابه فلسفة التاريخ، إذ يذهب كولنجوود إلى القول : " كان موضوع البحث الذي عرض له هو " الفكر " في أسمى معنى من معانيه، و تقصد به الفكر الفلسفي، ولكن ليس هذا موضوع البحث في كتابه فلسفة التاريخ ". بنقد كولنجوود لفلسفة التاريخ عند هيجل، هل حاول فيلسوفنا أن يستدرك هذا التقصير - على حد زعمه - في كتابه فكرة التاريخ و بعض كنهه الفلسفية الأخرى فنجده يخص " الفكر " بمكانة هامة و شروح مستفيضة ؟ يقول كولنجوود بأن : " هيجل في كتابه فلسفة التاريخ قد قصر موضوع بحثه على التاريخ السياسي " فهل هذا التبرير هو الذي جعله يبحث " الفكر " في النظرية التاريخية ؟

(17) هو رياضي إنجليزي أسهم في تكوين المنطق الرياضي و فلسفة العلم.

(1861 - 1947) ، شغل منصب أستاذ بكمبردج من (1911 - 1914)، و بجامعة لندن من (1914 - 1924) ثم أستاذا للفلسفة بجامعة هارفارد الأمريكية.

(18) مورتون وايت، عصر التحليل، فلاسفة القرن العشرين، ترجمة أديب يوسف شيش، دمشق : منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، (1975)، ص. 208.

(19) برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ترجمة فتحى الشنيطي، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، (1977)، ص. 499.

(20) المرجع نفسه.

(21) وضعي منطقي إنجليزي (1910 - 1988) شغل مناصب أكاديمية باكسفورد، عين في سنة 1959 في كرسي المنطق باكسفورد، إشتهر بكتابه : اللغة، الصدق و المنطق سنة 1936.

(22) ALFRED JULES AYER, LANGUAGE, TRUTH AND LOGIC, (NEW YORK : DOVER PUBLICATION, 1952), P 5.

(23) IBID, P 41.

(24) زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، (القاهرة: مكتبة مصر، ط1، 1968)، ص. 7.

(25) رودلف متس، المرجع السابق، ص. 315.

(26) ANTHONY QUINTON, " BRITISH PHILOSOPHY ", P.391.

(27) كتب برادلي هذا الكتاب، و كانت ظروف كتابته هي: نقد الأناجيل و الرد على مدرسة توينجن الألمانية، و على بعض علمائها مثل بور (BAUR) و شتراوس (D.STRAUSS) ، و بحث الطرق التي إعتمدوا عليها في تبيان الحقيقة الموجودة في الأناجيل و تناولها بالبحث و النقد، و نقد الشهادات التاريخية لدارسي الأناجيل. و لقد قام برادلي (1846 - 1924) بثورة ضد المدرسة الوضعية، و إعترض على أسلوبها في تناول التاريخ، و فسح المجال لطرق بحث جديدة.

(28) W.H.WALSH, OP.CIT, P11.

(29) كتب كانط في سنة (1784) إسهامه الفريد في فلسفة التاريخ، و كان يبلغ من العمر ستون عاما و UNIVERSELLE AU POINT DE VUE IDEE D'UNE HISTOIRE COSMOPOLITIQUE عنوان هذا الإسهام ب العالمي من وجهة نظر كونية، فكرة عن التاريخ و LA PHILOSOPHIE مراجعة STEPHANE PIOBETTA, KANT ترجمة DE L'HISTOIRE (opuscules) (PARIS: AUBIER, ED, ONTAIGNE, 1947).

(30) W.H.WALSH, OP.CIT. P 12.

(31) رودلف متس، المرجع السابق، ص. 208.

(32) وضعي إنجليزي (1821 - 1862).

(33) ر.ج كولنجوود، فكرة التاريخ، ترجمة بكير خليل، راجعه محمد عبد الواحد خلاف، القاهرة: لجنة التأليف و الترجمة و النشر، ط2، 1968)، ص 259.

(34) المصدر نفسه، ص. 404.

(35) أحمد حمدي محمود، " فكرة التاريخ لروبن جورج كولنجوود " تراث الإنسانية، المجلد الأول، (المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر)، ص. 136.

(36) يقع كتاب فكرة التاريخ في المرحلة الثانية من تطور كولنجوود الفكري، هذه المرحلة التي تمتد إلى غاية (1937) و تعرف بمرحلة النضج.

لقد جاء هذا الكتاب في أعقاب ثورة فكرية على الموروث الفلسفي التقليدي لفلسفة التاريخ، رغم أن موضوعه لم يتحمس له الإنجليز كثيرا. و هو مجموع مقالات و محاضرات و أوراق مسودة كان الفيلسوف ينوي جمعها و إصدارها في كتاب سنة (1936) تحت عنوان فلسفة التاريخ، و يقع في جزئين : الجزء الأول فيه عرض " لفكرة التاريخ " من هيروودوت إلى القرن العشرين، أما الجزء الثاني فهو تعقيب على الإشكاليات المعرفية المطروحة في التاريخ. و كان في سنة (1939) قد أتم الجزء الثاني تحت عنوان مبادئ التاريخ The Principles of History و قام في سنة (1940) بمراجعة المسودة التي كان قد كتبها في سنة (1936) و أعاد تسميتها "فكرة التاريخ" و بعد وفاة كولنجوود في سنة (1943 م) قام الناشر ت.م نوكس (T M KNOX) بنشر الكتابين في كتاب واحد بعنوان فكرة التاريخ THE IDEA OF HISTORY لإعتقاد الناشر أن الكتابين مرتبطان بالآخر منهجيا و معرفيا.